

ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية "دار الطالب" بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للأحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

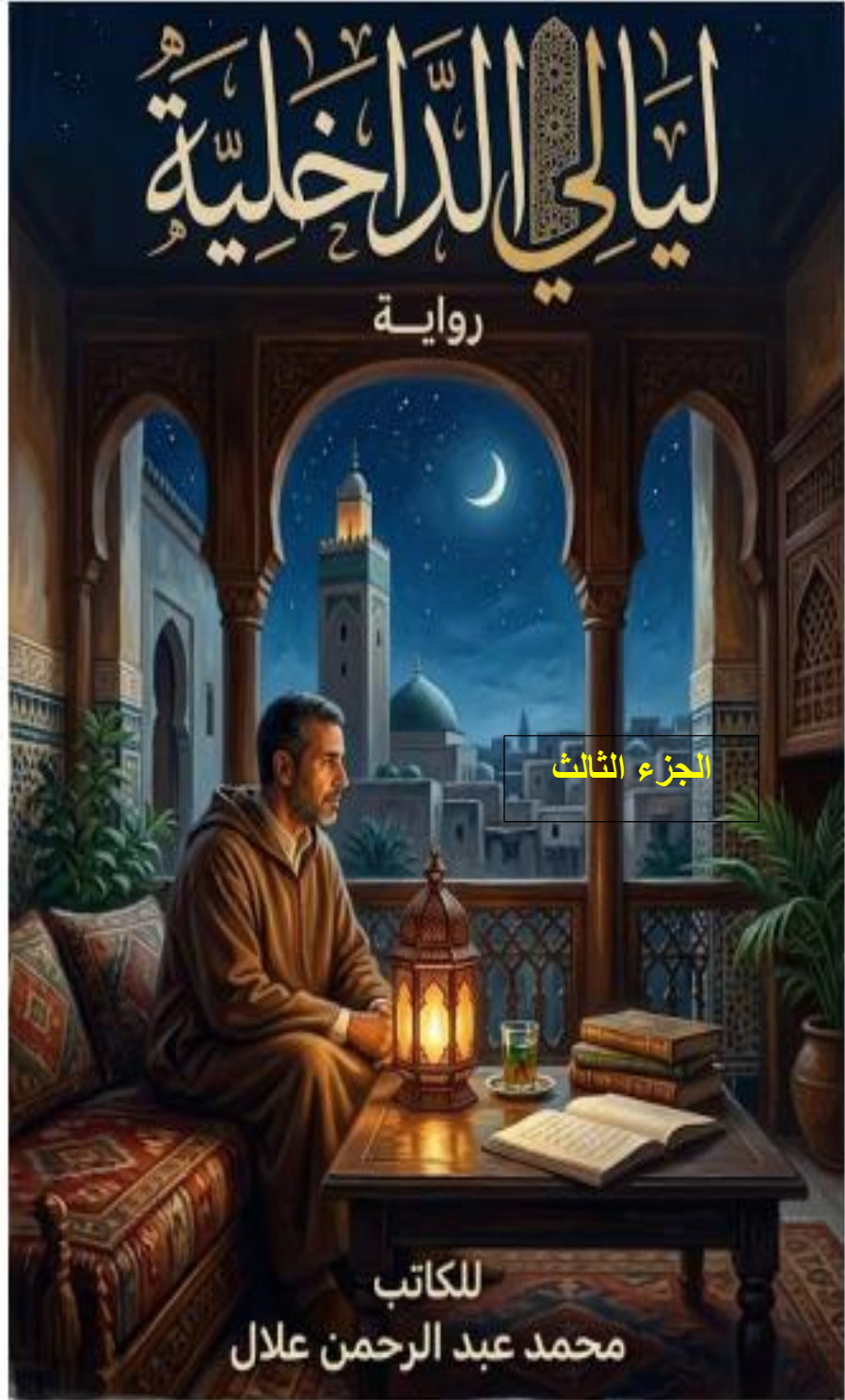
لَيْلِي الدَّاخِلِيَّة

رواية

الجزء الثالث

للكاتب

محمد عبد الرحمن علال



أحس تيمح شعورا غريبا ينتاب دواخله -وهو من غادر مدينته لأول مرة في حياته منذ انتقال الأسرة من القرية على الحدود وقد ظل حببها لخمس سنوات مضت. لم يكن له حظ خلالها من القراءة والمطالعة سوى ما حملته من الصور والنصوص جميلة اخاذة تسلب الالباب ،كتب احمد بوكماخ بأجزائه الخمسة ؛حيث العناوين براءة تطير بالعقل شوقا الى الغطس في بحارها"فرفر يعلق الجرس""سمبو الزنجي الصغير ""و""الكبش نطاح والذئب""الى السينما ""الخريف" «وغيرها من العناوين التي مثلت امامه قيما في صلافة اللغة، وروعة الصورة، وسمو المعاني والمرامي، ومخاطبة الاحاسيس. قيم الاخلاق والبيئة والوطن والعقيدة والعلاقات بين البشر، الى غيرها من الفضائل النقية الطاهرة التي تحرك الوجدان وتذهب بالروح بعيدا الى عوالم الخيال الجميل؛ عوالم تبني الفكر، تشيد قلاع الذوق الادبي الرفيع في مواجهة الجهل والسفاهة. حملتها بشكل مواز لها ،كتب الفرنسية بأجزائها الخمسة ل""ه ترانشار "" .اذ قدم العنوان الرئيسي فيها ""بيان ليغ اكمبغوندغ" *bien lire et comprendre* "قمة القيم في متانة اللغة وعمق الصورة ،ونبل المقصد من النصوص وسلاسة التصور البيداغوجي فيها - دخل مختبر الفيزياء - حيث يقف السي الشرقاوي خلف الباب مرحبا بالطلاب ،وحيث انتصب الى جانبه هيكل عظمي لم ير مثله تيمح منذ ولادته - غشيته رهبة شلت كل اطرافه .لم يتقدم من دهشته وخوفه خطوة الى الامام .أحس بالسي الشرقاوي ينظر اليه منتظرا مروره الى مقعده

.ابتسم قليلا ثم لبس وجه الجد من جديد .وهو على مقعده ،صار يلتفت الى الهيكل العظمي اكثر من تركيزه النظر الى الاستاذ .مثل امامه قصة الموت .القصة التي تمثلت في مخيلته بموت فاطمة الصغيرة الجميلة ذات الشعر المسدل كستارة على احدى مسارح لندن .ماتت وهي تلعب بين يدي والدها ذات يوم هناك في احدى بساتين القرية المعشبة .وقف سي الشرقاوي قصير القامة كما راه يومها ذو شعر خشن الملمس كثيف نما في جبهته وغطى بقية رأسه فلم يظهر منه شيئا .بوجهه سمرة اضفت عليه بهاء يزينه شارب تكاد شعراته تلج فمه .تخفي شفته العليا تماما .يرتدي معطفا تمتد خلاله سلسلة رقيقة حتى شقت صدره وبطنه .حدثهم يومها عن العظام .عرف العظام ودورها في جسم الانسان .كان ذلك كله بلسان فرنسي سلس متقن كأنك وانت تستمع اليه في احدى مكتبات باريس او مقاهيها .جاء المكان ذهابا وايابا و عينا تيمح لا تفارقان ذلك الجسم الميت .كان سي الشرقاوي يتلمس العظام بين فينة وفينة كانت عظام الأطراف تتحرك .« عجباً! كيف يلمس هذا الأستاذ عظام ميت ؟الا يخاف منه ومن الموت؟ »يقول تيمح في نفسه .حتى عندما وصل الى دار الطالب بعد انتهاء حصة الصباح الطويلة ؛حتى حين قدم له نصيبه من الطعام -فاصولياء على صحن بجانبه قطعة خبز كبيرة - حتى وهو امام ذلك المشهد الذي به سيسد جوع ساعات من العمل بالثانوية ،كان عقله منشغلا بذلك الهيكل .كان يطرح على نفسه الف سؤال وسؤال : "لمن هذا الهيكل ؟كيف استخرجوه من القبر ؟اه""يقول في نفسه هامسا

«ربما سمح لهم باستخراجه حتى يتمكن الطلاب من دراسته عن قرب. ظل هاجس الهيكل وصاحبه المتوفى يلازمه صباح مساء. في نومه أيضا ، كان ذلك يزعجه يقض عليه نومه. لم يتخلص من تلك الحال الا حين علم انه مصنوع وليس جسم ميت .

غربت شمس إحدى الآحاد من شهر اكتوبر عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين ميلادية تسحب أشعة فاترة لونها الأفق بالاحمرار لتمسح عن ذلك المكان آية الضوء الى الظلام الدامس ؛ تبدو من على سطح الداخلية مستسلمة يهزمها تقدم أيام الخريف المتحولة. بعد ان تناول وصحابه وجبة العشاء المعتادة من الحساء .وبعد سمر على الأسيرة يستمعون الى حكاوي وأحجيات الذين مروا بتجارب حياتية بارزة من قدماء الدار، نام تيمح على أمل الوصول الى هناك .على أمل بلوغ ذلك المكان الذي كان يراود أحلامه منذ ان درس عنه في مادة الجغرافيا عند "سي ميموني" قبل عام من ذلك التاريخ ؛أمل زيارة "وادي زسفانة -سسفانة-" بعيدا عنك قرب الحدود الوهمية كان معلم الجغرافيا في قسم الشهادة يذكره كلما عرج على ذكر انهار المغرب وسدوده في درس التضاريس .تولد لدى تيمح آنذاك توق شديد الى بلوغه .الى ملامسة مائه ورماله .الى معانقة نخلاته الباسقات على الضفتين

.الى اللعب مع سمكاته كما فعل معها في وادي "بركة"
بقريته إيش قبل عقد من الزمن. أطل الصباح بنور شمس دافئة .نهض والصحاب وغادروا مواضع نومهم. تناولوا

فطوراهم دون أن يهتموا لما احتواه. فالشوق الى معانقة
الوادي أغناهم عن أي إحساس بالطعام. فجأة، بدأت الاقدام
تطوي الثرى راحلة صوب ذلك المكان البعيد. يمشون
ومعهم المسؤؤل عن الرحلة في وقار وانضباط. كان قليل من
ضباب الصباح يغطي الطريق والمناطق المجاورة نديا
باردا. ظهرت تباشير بلوغ الوادي تتضح من خلال الضباب
الكثيف. بدت جسوم دواب بعض الفلاحين تحمل أكواما من
الأعشاب قادمة من هناك. كان ينظر اليهم، الى دوابهم، الى
العشب على ظهرها يترنح. ينظر الى كل شيء. الى كل
مكان حول ذلك المكان الذي طبع له في مخيلته السي ميموني
صورة لا تمحوها السنون. ذكرى سبورة سوداء لعبت فيها
الوان الطباشير ادوارا طلائعية. اقترب تيمح ومن يرافقه من
الوادي. هاهم الان يطلون عليه، يتراى لهم على مرمى
البصر وديعا رقراق الماء باسق النخلات. انزلقوا عبر مرتفع
قليل انحداره نحو الوادي مسرعين. هاهم بين أحضانه،
تضمهم اليها ضفافه ذات الرمل الاصفر الناعم. على
الارض، كانت التمرات ترسو سوداء اللون او صفراء او
حمراء بها عسل، تسافت في وقت من اليوم من أعلى
النخلات. شرع يجمعها ويلتهمها التهاما تلتصق أصابعه من
عسلها فيغطسها في الماء. كان الاخرون منهمكين يلهون
ويقتاتون من عطايا الوادي الحلوة. بعد حين من الوقت،
دخلوا الوادي يغسلون ارجلهم وايديهم ووجوههم. كان الماء
باردا، براقا. عانق بعضهم الوادي سباحة. تظهر من الضفة

صدورهم العارية ترتعد أيديهم .طففت السمكات تسبح في
سلام بين أرجلهم.كان بعض أهل البلدة يصطادون على
الجوانب.رآها كبيرة ملساء الملمس تتراقص مع ماء الوادي
مودعة الى حين.إلى يوم النصر .عم الصخب على الضفاف
حتى تجاوز الحدود المجاورة .حين حان موعد العودة ،أحس
تيمح بحزن شديد ؛كأن المكان يتهيأ لحدث عظيم قادم ..في
طريق عودتهم الى دار الطالب ،كانت الشمس قد نشرت
أشعتها ساطعة دافئة على كل الأرجاء والنهار ينتصف .كانت
بعض الدور في بغداد في طور البناء لا تزال .جعل العمران
بها يأخذ الطابع العصري .طرق واسعة .مبان فخمة .ركن
بعضهم سيارته بمحاذاة الطوار أما منزله .تفرعت فيها
الطرقات طويلة تؤدي الى الطريق الرئيسية ؛وعبرها الى
مناطق سلبية من اراض الوطن. الى بني ونيف، الى بشار،
الى العين الصفراء .كانت يافطات على الطريق العام تشير
الى ذلك .لقد رآها بأم عينيه لا كذب.مشوا كل تلك المسافة
يتحدثون عن الوادي وخيراته حتى بلغوا مأواهم الجماعي.
كان النهار قد انتصف وها هي أصوات الصوامع تصدح
بالاذان من كل الجهات. دخلوا قاعة الاطعام تحلقون حول
موائد الكسكس .اليوم أحد . الكسكس وجبة رئيسية على
صحون صغيرة الحجم تعلوها قطعة لحم من دكان الجزار
"مو صالح" .كان رجلا ضخما يظهر بمقدته المشحودة من
خلال الشارع الكبير وهو يقطع اللحم قطعاً صغيرة .يهشم
العظام تهشيما،يجمع الشحم في اوراق مخصصة لذلك .تناول

تيمح ما تيسر من الكسكس .حمل برتقالته الى خارج القاعة
ينزع قشورها في بطة شديد .انتشر الطلاب في ارجاء ساحة
الدار يتناولون البرتقال هم أيضا .عند المساء ،مع حلول الليل
، غط الجميع في نوم عميق